مجلة أكاديمية محكمة تعنى بالدراسات القانونية والاقتصادية والإنسانية برؤية حضارية تكاملية
A peer-reviewed journal in law, economics, and humanities from an integrative civilizational perspective

مفهوم الحياة النفسية بين الميتافيزيقا والتحليل النفسي: برغسون وفرويد

محمد كبيش
باحث بسلك الدكتوراه، تخصص الفلسفة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة محمد الخامس بالرباط

الملخص:

يبتغي هذا المقال تحديد مفهوم الحياة النفسية بين الميتافيزيقا والتحليل النفسي، من خلال المقارنة بين تصورين متعارضين؛ ونعني هاهنا كلا من الفيلسوف هنري برغسون، والمحلل النفساني سيغموند فرويد. ليظهر وجه الاختلاف بين نظريتهما من خلال؛ ربط برغسون للحياة النفسية بالديمومة الخالصة والشعور الذي تتداخل عملياته مع الذاكرة الخالصة؛ مما يضفي على الحياة النفسية مفهوما ميتافيزيقيا. وعلى النقيض منه أسس فرويد لمقاربة سيكولوجية وبيولوجية، جعلت الحياة النفسية متصلة بالعمليات اللاشعورية الفيسيولوجية. أما عن السيرورة الدينامية للحياة النفسية فقد اعتبرها برغسون اندفاعًا حيويًا، في حين ربطها فرويد بطاقة الليبيدو الغريزية.

كلمات مفتاحية: الحياة النفسية، الميتافيزيقا، هنري برغسون، سيغموند فرويد، الشعور، اللاشعور، الأنا، الديمومة، الذاكرة، الاندفاع الحيوي، الليبيدو.

Abstract:

This article aims to define the concept of psychic life between metaphysics and psychoanalysis, by comparing two opposing conceptions, namely the philosopher Henry Bergson and the psychoanalyst Sigmund Freud. The difference between their two theories is shown by Bergson's connection of the psychic life to pure Duration and the Consciousness that its processes interfere with pure memory, thus giving the psychic life a metaphysical concept. In contrast, Freud established a psychological and biological approach, which made the psychic life connected to the physiological unconscious processes. As for the dynamic process of psychic life, Bergson considered it a vital impulse, while Freud linked it to the instinctive libido energy.

Keywords: Psychic Life, Metaphysics, Henri Bergson, Sigmund Freud, Consciousness, Unconsciousness, Ego, Duration, Memory, Vital Impulse, Libido.

مقدمة:

حينما نسعى إلى بيان مفهوم الحياة النفسية بين الميتافيزيقا والتحليل النفسي، فإننا نكون بمعية معنيين لها؛ ففي المعنى الميتافيزيقي تتخذ لذاتها بعدا خالصا، أما في المعنى الذي تبناه التحليل النفسي؛ فإنها تنحت لذاتها بعدًا سيكولوجيًا بيولوجيًا ماديًا بحتًا. وقد نزعنا إلى اعتماد أنموذجين متباينين من حيث المقاربة، والأمر يتصل هاهنا بكل من الفيلسوف الفرنسي **هنري برغسون**[1] **(Henri Bergson)** ؛ الذي شكل تصوره لماهية الحياة النفسية بعدا ميتافيزيقيا محضا، عبر التداخل بين الديمومة النفسية الداخلية للأنا، واتصالها بالشعور الخالص المحايث للذاكرة التي لا انفصال لها عنه. فالحياة النفسية بالمنظور البرغسوني بمنزلة ديمومة متصلة تتدفق بلا انقطاع، ولابد أن نتبين كون اتصال الحياة النفسية عند برغسون لا نعني بها دائرة مغلقة تدور في كنفها الحياة النفسية، بل هي عبارة عن سيرورة مستمرة عبر ديمومة الزمان النفسي الحي، الذي يمثل تجربة داخلية غائِرة في الحياة النفسية الشعورية للأنا. أما الأنموذج الثاني الذي اتجهنا إلى وضعه في مقارنة مع التصور الميتافيزيقي لبرغسون، يتعلق بالمحلل النفسي **سيغموند فرويد**[2] **(Sigmund Freud)**، هذا الذي نحت مفهوما سيكولوجيا وبيولوجيا ماديا لجوهر الحياة النفسية، عبر الإتيان بفرضية محدثة في سياق علم النفس آنئذ، وهي فرضية اللاشعور الذي يرسم ملامح الحياة النفسية. ولعل الباعث على تبني فرويد لهذه النظرية، له خلفية علمية مادية كانت مُشاعةً مع امتداد نظرية التطور البيولوجي. لذا كانت الحياة النفسية بالمنظور الفرويدي بمثابة اندفاعات غريزية بيولوجية يلف نسيجها حياة لاشعورية تتوارى خلف قناع الشعور.

وإن إمكان التلاقي بين المقاربتين ضئيل، لكون الخلفية التنظيرية لكل من برغسون وفرويد لا تتآلفانِ، بل تتباينانِ بصورة ماهوية، لاعتبار برغسون ذو نزعة حيوية ميتافيزيقية خالصة تسبر أغوار مفهوم الحياة النفسية، بخلفية فلسفية حيوية. أما فرويد ذو نزعة سيكولوجية تتأسس على العلوم الوضعية البحتة والطب النفسي الذي ينهل من الأبحاث

---

[1]- هنري برغسون Henri Bergson (1859-1941)، فيلسوف فرنسي، ينتسب لتيار الفلسفة الحيوية الفرنسية، التي لها نزعة ميتافيزيقية خالصة، فقد سعى عبر فلسفته إلى نحت مفهوم الديمومة الخالصة التي تَدِبُّ في كل فلسفته الحيوية، ومن أبرز مؤلفاته الفلسفية نجد: "بحث في المعطيات المباشرة للشعور"(1889)، الذي أسس فيه لمفهوم الزمان الحي، بما هو تجربة نفسية جوَّانية، "المادة والذاكرة"(1896)، الذي بين فيه ماهية الذاكرة وإمكان علاقتها بالمادة من عدمه، مع تحديد نوعها: الذاكرة الخالصة وذاكرة العادة والتكرار، "التطور الخلاَّق"(1907)، هذا المؤلف انبرى فيه برغسون إلى نقد شامل للتيارات التطورية الداروينية واللالامركية الجديدة، وكان رهانه هو رسم حياة خلاقة تتطور في صيرورة خالصة تُشكل ذاتها بذاتها.

[2]- سيغموند فرويد Sigmund Freud (1856-1939) ، يعد من مؤسسي مدرسة التحليل النفسي، وقد كان له أثر في نحت نظرية أطلق عليها فرضية اللاشعور، هذه التي ردَّ إليها ماهية الحياة النفسية، عبر تأويل كل الانفعالات والمشاعر النفسية إلى صراع داخلي في بنية الجهاز النفسي، أي تأرجح الأنا بين ما يبتغيه داخلياً وبين ما يفرضه عليه الواقع الصارم خارجياً، ومن أهم مؤلفاته في مجال التحليل النفسي نجد: "تأويل الأحلام"(1900)، حيث بين فيه العلاقة بين الحلم واللاشعور بما هو الجوهر الأساسي الذي يمنح إمكانية تأويل الأحلام، فطبيعة الأحلام لا تفسر بالجانب الشعوري لأنه لا يمثل إلا النزر اليسير من حياتنا النفسية، "ثلاثة مباحث حول نظرية الجنس"(1905)، "خمس محاضرات في التحليل النفسي" (1910)، "مدخل إلى التحليل النفسي " (1916-1917).

البيولوجية والفيسيولوجية. بل وأن الأمر بيّن من خلال الديمومة النفسية التي تبناها برغسون والتي تندمج مع فاعلية الشعور لتشكل معنى الحياة النفسية، أما عن فرويد فاللاشعور هو أساس هذه الحياة النفسية. وحتى عن الذاكرة التي تتملك المقدرة على حفظ ذكرياتنا النفسية، فقد اهتدى برغسون إلى أن الذاكرة حمَّالةٌ لنوعين: ذاكرة خالصة تحفظ ذكرياتنا النفسية الغائرة في أوصال حياتنا النفسية، وذاكرة مادية تقوم على التكرار والعادة، هذه الأخيرة التي تمتلك هيئة محدودة ترسخ في حدود الذكريات العابرة لا الغائرة. ولذا لم يفصل برغسون بين الذاكرة الخالصة والشعور؛ اللذان يرسمانِ صورًا خالصة لذكرياتنا النفسية، ويتكاملان مع الديمومة النفسية المتصلة التي بها تتدفق حياتنا النفسية بلا توقف. أما فرويد فقد خلق الوصال بين الذاكرة واللاشعور؛ وما الذاكرة في نظريته إلا فاعلية مادية لا انفصال لها عن حياتنا اللاشعورية، فالذاكرة تُراكِم الأحداث والذكريات النفسية الغائرة في لاشعورنا النفسي. أما عن العلاقة بين الحياة النفسية والاندفاع الحيوي، فقد كان للميتافيزيقا البرغسونية نظرية الاندفاع الحيوي، التي عبرها تعرف الحياة النفسية دفقًا وسيرورة لا يطالها توقف، وقد كانت نظرته خالصة لهذا التصور. وفي مقابله نظر فرويد للحياة النفسية بما هي طاقة حياة غريزية تنكشف من خلال الليبيدو؛ الذي يرسم مسار الحياة النفسية والبيولوجية للإنسان منذ وجوده كرضيع يجابه رغباته ونزوعاته الجنسية والسيكولوجية في الحياة، لأجل حفظ بقائه.

ولابد من بيان المسار الذي ستسلكه مقاربتنا للموضوع من خلال استنادنا إلى المنهج الوصفي التحليلي، وكذلك اعتمادنا على المنهج المقارن، لتبيان المنظورين المختلفين: البرغسوني والفرويدي حول مفهوم الحياة النفسية. بالإضافة إلى مسألة المنهج، فإننا سنحلل ثلاثة نقاط محددة في موضوع المقال، وهي، أولاً؛ الوقوف عند تفسير وتحليل الحياة النفسية بين الشعور الخالص عند برغسون والاندفاع اللاشعوري عند فرويد. ثانيًا؛ تحليل العلاقة المُلغزة بين الذاكرة والحياة النفسية، ومدى نحتها للذكريات الماضية انطلاقًا من نظرية برغسون وفرويد، وثالثًا؛ سنسعى إلى بيان العلاقة الكائنة بين الاندفاع الحيوي والحياة النفسية بين الطرح الميتافيزيقي ونظرية التحليلي النفسي.

ووفقا لما تداولناه سيكون لنا مسعى للبحث في هذين التصورين: ونعني، الميتافيزيقي والتحليلي النفسي، عبر طرح أسئلة إشكالية جوهرية، وهي كالآتي:

ما الذي يشكل ماهية الحياة النفسية؟ هل ما هو ميتافيزيقي خالص، أم ما هو سيكولوجي بيولوجي بحت؟ وعلى وجه المقارنة عبر أنموذجين هما: برغسون وفرويد، كيف يمكن اعتبار الحياة النفسية بمثابة فاعلية حيوية وديمومة نفسية متدفقة تتآلف مع الشعور والذاكرة بالمنظور الميتافيزيقي لبرغسون؟ أما في على النقيض منه، فما الذي يجعل من الحياة النفسية بمنطق التحليل النفسي الفرويدي تحكمها فاعلية لاشعورية بيولوجية تتراكم فيها الذكريات والأحداث

الشخصية للأفراد وتطفو إلى السطح لتخلق صراعاً داخلياً في الجهاز النفسي العميق؟ وهل هناك من إمكانية لتصور علاقة بين الاندفاع الحيوي للحياة والحياة النفسية وفقًا للتصورين البرغسوني والفرويدي؟ وما الباعث على سيرورة الحياة النفسية واندفاعها بلا توقف؟ وهل محركها هو الاندفاع الحيوي، أم غريزة الليبيدو؟

1- برغسون وفرويد؛ الحياة النفسية بين الديمومة الشعورية الخالصة، والاندفاعات اللاشعورية السيكولوجية:

لا غرو أن فهم جوهر الحياة النفسية وتحليلها، أشكَل على الفلاسفة انطلاقاً من القدامى، وصولاً إلى المعاصرين منهم، وقد نُحِتت نظريات ومقارباتٌ متعددة ومتباينة حولها، وتاريخ علم النفس لا يخلو من المحاولات التي دأب عليها علماؤه منذ انكشافه في القرن التاسع عشر بانفصاله عن الفلسفة، ونزوعه نحو محاكاة المنهج العلمي الصارم للعلوم الوضعية. وفي غمرة من له القول الفصلُ من عدمه في تفسير الحياة النفسية، نجد النقاش الدائر بين الميتافيزيقا والتحليل النفسي، حيث كان لكل من برغسون وفرويد نظريته المتفردة، فلكل منهما أساس خاص منه بنى من خلاله تصوره عن الحياة النفسية. فبين التجاذب بين الميتافيزيقا والتحليل النفسي يُطرح سؤال: **أي معنى تحمله ماهية الحياة النفسية؟** لقد كان برغسون يرى أن الديمومة الخالصة المتدفقة هي جوهر الحياة النفسية، نعني هنا تلازُمها مع الشعور الذي يشكل نسيجها، وهذا الأمر يصدقُ من خلال الحيوية المنغرسة في الحياة النفسية، أي أنها في حركة، لا في ثبات وسكون، فتدفق الديمومة وجريانها يجعلها تنعكس على الحياة النفسية، ويدِبُّ فيها الشعور تدفقاً متصلاً لا قِبَلَ لهُ عن الانقطاع. وتفسير فاعلية التدفق مرده إلى أن شعور حركي دائم، له انسيابية ومقدرة على التصرف بحرية تجعل الحياة النفسية هي الأخرى في حيوية[1]، فالديمومة النفسية لا تبرح مكانها، ولا تمثل فقط تراكماً مادياً للحالات النفسية الداخلية، بل إن جوهرها متصل بالشعور، ونعني حركته المرتبطة بديمومة نفسية داخلية، مما يجعل الحياة النفسية الغائرة للأنا لا تعرف توقفاً بل ما يشكل أساسها هو الحيوية والاستمرارية. والديمومة من حيث المعنى؛ تمثل تجربة مُعَاشةً في دواخل الذات، فهي عبارة عن تغير داخلي للحالات النفسية، فهي بمنزلة تغير لذات الجوهر بصورة خالصة[2]. أي أن ما يطرأ على الأنا من تغير في حالاتها الشعورية يحدث بصورة خالصة داخلية، ولا يتصل بالعالم الحسي المادي، بمعنى أن الحياة النفسية لا تقبل القياس المادي، فأن نقول إن الذات قد عاشت حالة نفسية أولى أشد وقعًا من التي تليها، عبر جعل الحالة الثانية متضمنة في الأولى؛ قياسًا إلى برغسون فهذا الأمر نجده عند علماء النفس الفيزيائيين الذي ما يفتؤون يتجهون إلى قياس الحالات

[1]- Frédéric Worms, Le Vocabulaire de Bergson (Ellipses édition, Paris, France, Juin, 2000), p. 16.

[2] - Gilles Deleuze, La philosophie de Bergson (Bibliothèque de Philosophie Contemporaine, Fondée par Félix Alcan, P.U.F), p. 29.

النفسية بما هي تراكم مادي لحالات متعاقبة[1]. أي ما اختلف فيه برغسون مع علماء النفس الفيزيائيين هو استحالة قياس الحياة النفسية كميًا لكون تغيراتها النفسية من جهة حالاتها تعبر عن ذات الجوهر وليس تغيرا في حالات منفصلة ماديا.

غير أن فرويد نظر إلى الحياة النفسية انطلاقا من خلفية تنظيرية متصلة بالتحليل النفسي ومُحَاكِيَةً للعلوم الوضعية، ليبدع نظرية اللاشعور، إذ نظر للحياة النفسية بمنظار سيكولوجي بيولوجي لا ميتافيزيقي، بمعنى أن اللاشعور حمَّالٌ لحقيقة الحياة النفسية وله أثر في فهم ماهية الحياة النفسية، أما الشعور قياسًا إلى نظريته لا يمتلك معطيات كاملة، فهو يوسم بالنقصان. لأن معظم الأفعال والسلوكيات النفسية، سواء التي يُقدم عليها الشخص السوي أو غير السوي التي تكتنف حياته النفسية، تحمل طابعا لاشعوريا، وعلى العكس لا مقدرة وفق فرويد للشعور على تحمل وفهم هذه الأفعال النفسية. ففهم جوهرها لا يكون إلا بوصلها بالفاعلية اللاشعورية[2]. هنا يتبدى لنا التباين الجوهري بين برغسون الذي اعتبر الشعور المتصل بالديمومة هو أساس الحياة النفسية، بيد أن فرويد نظر إلى أن اللاشعور هو الوجه الحقيقي للحياة النفسية. فالفلسفة التي تقوم على التأمل أو علم النفس التجريبي، ليست لها المقدرة وفقا لفرويد على فهم أغوار العلاقة الكائنة بين الجسم والنفس، والشعور، ولا حتى استيعاب الوظائف والعمليات العقلية[3]. وفكرة كهذه التي يتبناها فرويد تعبر بوضوح على أن استجلاء مفهوم الحياة النفسية يكون عبر التحليل النفسي، الذي يرد كل الحركات والسكنات النفسية إلى الفاعلية اللاشعورية.

لا يمكن هنا أن نجزم قائِلين: إن اللاشعور ليس جزءا من الحياة النفسية، وفي ذات الآن لا يمكن أن ننكر دور الفاعلية الشعورية. لاعتبار النظرة البرغسونية للحياة النفسية منبعها ميتافزيقي خالص، يربط بينها وبين الشعور الذي له بصمة في نحت الحياة النفسية، هذه الأخيرة التي يساورها التدفق والحركة والتغير الكيفي في حالاتها. لكن تصور فرويد بمنظاره القائم على التحليل النفسي، قلص من دور الشعور وأدخله في لُجَّةِ اللاشعور الذي يحمل هيئة شاسعة تنبض بالماضي النفسي والأحداث التي عاشها الإنسان. غير أن ما يمكن نقده في نظرية التحليل النفسي عند فرويد، كونها ألغت الفاعلية الشعورية وأفرغت الأفعال النفسية الإنسانية من حريتها، وكأن الإنسان لا يحكمه إلا الفاعلية اللاشعورية، وما هو إلا أسير للاندفاعات السيكولوجية اللاشعورية والرغبات النفسية، وكأن فرويد يلغي حرية الاختيار لدى الإنسان ويُعَطّل فاعلية الشعور، لتكون الحياة النفسية عبارة عن فعالية لاشعورية مِلؤُهَا الانفعالات والاضطرابات النفسية

[1]- Henri Bergson, Essai sur les données immédiates de la conscience (Quadrige, PUF, I 55e édition, Avril, 1982), p. 2.

[2]- Sigmund Freud, Métapsychologie, trad. Fr. J. Laplanche et B. Pontalis (Galimard, 1968), p. 66.

[3]- ميكل بورش، جاكوبسون وسونو شمدزاني، في تاريخ نشأة التحليل النفسي : ملفات فرويد الموثقة، ترجمة عبد القادر قنيني (أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2017)، ص. 17.

والصراعات. وبهذا التصور تصير الحياة النفسية مُكَبَّلةً لا حيوية ولا حرية فيها، لتصير عبارة عن تراكم للحالات والعقد النفسية الماضية في اللاشعور الذي يمثل الوجه الغائر للحياة النفسية الإنسانية. لكن في سياقٍ مناقضٍ يمكن أن نقول إن نظرية برغسون بَثَّت الحيوية والحرية في الحياة النفسية، نعني؛ أن الديمومة الداخلية النفسية تخلق الوصال العميق بين الذات وتغير حالاتها النفسية بصورة خالصة. فكل ما يساور الأنا من تغيرات، هي بالأساس شعورية خالصة تعبر عن نفس الماهية الخالصة، ولا تعبر عن تراكم كمي في الحالات النفسية.

فإذا كان برغسون قد قارب مفهوم الحياة النفسية مَانِحًا إِيَّاهَا منظورًا حيويًا خالصًا يحررهَا بفعل تدفق الديمومة؛ فإن فرويد قارب الحياة النفسية بمنظور سيكولوجي بيولوجي مادي، جعل الحياة النفسية غير متحررة وتَرزحُ في كنف الاندفاعات والنزوعات السيكولوجية اللاشعورية.

2- نظرية الذاكرة بين برغسون وفرويد و أثرها في ماهية الحياة النفسية:

كما أن لبرغسون وفرويد نظريتين تختلفانِ من حيثُ الأساس، أي بين الشعور واللاشعور، وعلاقتهما بالحياة النفسية، فإن لهما أيضًا تصورين متباينين من حيث فاعلية الذاكرة وأثرها في ماهية الحياة النفسية. وإذا اتجهنا نحو الكشف عن مفهوم الذاكرة لدى برغسون وفرويد، تجابهنا أسئلة ذات بنية مركبة، وهي: **هل الذاكرة لها اتصال بالشعور أم اللاشعور؟ وهل فاعليتها تتآلف مع وظائف الدماغ، أم تنأى بعملياتها عنه؟** لعل أبرز مفهوم ينسحب على الفلسفة الحيوية البرغسونية هو مفهوم الديمومة، هذا الذي يلقي بضلاله على عمليات الذاكرة، التي وضع لها برغسون نوعين مختلفين في ارتباطهما بالحياة النفسية؛ فالنوع الأول من الذاكرة؛ هي الذاكرة الخالصة، والتي ما هي إلا الشعور ذاته[1]، لنقل إن بينهما علاقة اقتران، بمعنى عمليات الذاكرة الخالصة تتكامل مع عمليات الشعور، وتنفصل عن وظائف الدماغ، أما النوع الثاني من الذاكرة، هي ذاكرة التكرار والعادة، لأنه إذا كانت الذاكرة الخالصة لها المقدرة على التخيل والتصور الخالصين، التي ميَّل برغسون كفتها، فإن نقيضتها ذاكرة التكرار هي التي اهتم بها علماء النفس[2]. وهذه الذاكرة ذات طبيعة مادية مندمجة مع وظائف الدماغ الآلية. وحينما نحلل نظرية الذاكرة في علاقتها بالحياة النفسية في الفلسفة البرغسونية، نجد هذا التمييز بين ذاكرة ذات نفحة ميتافيزيقية، تنغرس في حياتنا النفسية، أي أن الذكريات لها سيرورة متصلة لا تعرف انقطاعًا، لأن جريان الديمومة يمنح للذكريات طابع الاتصال بين ماضينا وحاضرنا النفسي، وهذه الوظيفة تصدُقُ عن

[1]- Henri Bergson, L'énergie Spirituelle : Essais et conférences (Bibliothèque de philosophie contemporaine, Fondée par : Félix Alcan, PUF, cinquante-deuxième éd, 1949), p. 5.

[2]- Henri Bergson, Réflexions sur le temps, l'espace et la vie (édition Payot & Rivages, Collection Petit biblio Payot Classiques, Paris, 2023), p. 56.

طريق تداخل عمليات الذاكرة الخالصة مع الشعور[1]. فالذي يمنح للإنسان إمكانية استحضار ذكرياته النفسية الغائرة، هي الذاكرة الخالصة لقدرتها على تخزين تفاصيل أحداث نفسية لها وقعٌ أعمق علينا. أما ذاكرة التكرار فإنها لا تقتدر على تخزين الذكريات التي تُلامس حياتنا النفسية العميقة بل تكتفي بالذكريات التي لا أثر عميق لها على حياتنا النفسية، كأن نحفظ درسًا عن طريق التكرار حتى يترسخ لدينا ويصير عادة مألوفة[2]. ويكمن الفرق الجوهري بين الذاكرتين؛ أن الخالصة لها الاستطاعة نحو النفاذ إلى عمق حياتنا النفسية وتخزين ذكرياتنا في صور خالصة، أما ذاكرة العادة والتكرار فتقف عند حدود الفاعلية المادية، وتشتغل بصورة آلية تعتمد على التكرار الآلي الرهين بوظائف الدماغ والجسم. هنا نتبين بمعية برغسون ذاكرة من صنفٍ خالص لا ارتباط لها بآلية الدماغ، لأن كل الذكريات النفسية الغائرة تتدفق في الشعور الخالص. وبالتدفق نستذكر ماضينا في حاضرنا، بواسطة الذاكرة الخالصة، والشعور له القدرة على استباق المستقبل، نعني أن الذاكرة لها قدرة محدودة في حفظ ماضينا دون قدرتها على رؤية المستقبل، لأن هذه الملكة يتسم بها الشعور، وفقًا لنظرية برغسون.

لكن في السياق العلمي المادي، كان الاهتمام آخذًا ذاته نحو الذاكرة المادية بوصلها بوظائف الدماغ والعالم الحسي، بمعنى وظيفة الذاكرة تعبر عن تراكم كمي للذكريات النفسية والأحداث المُعاشة في الماضي. إذ تم صرف النظر عن فاعلية الذاكرة الخالصة، وتم فصلها عن الشعور. والأمر يتعلق هاهنا بنظرية فرويد حول الذاكرة السيكولوجية المتصلة ببيولوجية الجسم واللاشعور. فمن حيث العلاقة الكائنة بين الذاكرة والذكريات النفسية، بين فرويد أن الذكرى تكون رهينة بسياق اللحظة الآنية الحاضرة، لأن ما الذكرى إلا تعبير عن الانطباعات النفسية الماضية، وما يراه فرويد أن الذكريات تتميز بالانسيابية والدينامية، ولا يعرف كيانها الجمود، إذ كل ذكرى تجسد لحظة فريدة لها خصوصيتها التاريخية؛ لذا تتسم الذاكرة بكفاءتها على منحنا وجودًا ينساب بنا بين الماضي، والحاضر، والمستقبل[3]. وحينما نتأمل في مسألة دينامية الذكريات وحركتها في تصور فرويد نخال أنه يتبنى نفس فكرة برغسون الميتافيزيقية، حول تدفق الذكريات وحيويتها بأثر الديمومة النفسية؛ لكن فرويد نظريته سيكولوجية بحتة ترى الذاكرة بمنطق الطب النفسي، وأنها فاعلية دماغية، ونقصد أن الذاكرة مادية نظرًا لتجذرها في عالم اللاشعور. وهنا نُلمِحُ إلى العقد النفسية التي تتراكم في اللاشعور منذ الطفولة، وكلما مر الزمن تكبر العقد النفسية وتصير وطأتها أشد إيلامًا، لكن هذه العقد تظل راسخة في الذاكرة وتعود

[1]- Henri Bergson, Matière et mémoire : Essai sur la relation du corps à l'esprit, Introduction, notes, chronologie et bibliographie par : Denis Forest (édition établie sous la direction de Paul-Antoine Miquel, éditions GF Flammarion, 2012), p. 182.

[2]- Henri Bergson, Réflexions sur le temps, l'espace et la vie. Op.cit. p. 53.

[3]- Jean- Yves Tadié et Marc Tdié, Le sens de la mémoire (édition revue et augmentée, Introduction inédite, éditions Gallimard, collection essais folio, Paris, France, février, 2025), p. 60.

لتظهر في كل لحظةٍ وحين لتظهر في الأحلام بصورة مشوهة الملامح وغريبة. فمن خلال انكباب فرويد على دراسة مرض الهيستيريا، بدى له أثناء تحليل أحلام بعض الحالات النفسية المرضية مثل؛ **" حالة دورا (The Dora case) "**[1]، والتي سعى إلى تحليل حلم موت أبيها، الذي وصفت طبيعته المشوهة والغريبة في مدينة غير مألوفة، وشوارع غير معهودة لها، ومنزل غريب عثرت فيه على رسالة تركتها أمها لها تُنبِؤَهَا بموت أبيها. وعبر تفاصيل الحلم الطويلة حاول فرويد فك شيفرة حالتها النفسية، وذلك ابتغاء فهم أعمق لما عاشته في ماضيهَا، ليتمكن من غلق منفذ في ذاكرتها، حتى يتسنى له فهم أعراض نفسية أخرى، لينتهي إلى تشكيل صورة متكاملة عن حالتها المرضية[2]. كما يبدو أن فرويد لا يفصل الذاكرة عن الأحلام، والباعث على هذا الأمر أن الأحلام تعكس صورة الحياة اللاشعورية للمرضى، وذلك لفهم ما يُكابدونه من صراع داخلي في حياتهم النفسية العميقة، والأحلام لا تنفك عن ترجمة الذكريات الدفينة المكبوتة في ماضي الإنسان منذ طفولته لتطفو إلى السطح في عالم الأحلام.

يتبدى لنا الفرق واضحًا بين برغسون وفرويد من جهة فهم فاعلية الذاكرة في ارتباطها بالحياة النفسية، إذ هي ذات بعد ميتافيزيقي خالص مستقل عن وظائف الدماغ، أي أن الذكريات تتدفق صورها في الحياة النفسية عبر الديمومة التي تتظافر مع الذاكرة والشعور اللذان تتآلف عملياتهما بصورة متداخلة. أما عن فرويد فالذكرة هي وجه اللاشعور، هذا الذي يعبر عن الحياة النفسية والذكريات الأليمة والصراعات الداخلية، ويُستَجلَى هذا في الأحلام، لأن الأحلام بلغة فرويد هي؛ بمنزلة: **" طريق ملكي نحو اللاشعور"**، ونحو جوهر الحياة النفسية. فهنا تفسير ماهية الذاكرة عند فرويد كان أساسه سيكولوجيًا متصلاً بالدماغ واللاشعور.

3- برغسون وفرويد: صيرورة الحياة النفسية بين الاندفاع الحيوي وغريزة الليبيدو:

إن الحياة النفسية لا تتسم بالجمود، بل هي سيرورة بلا توقف، والمانح لها تدفقها هي طاقة الحياة الغريزية الداخلية، التي تحث الإنسان على النزوع نحو الاستمرار. وينكشف وجه هذه الحركة اللامتناهية للحياة النفسية، من خلال الاندفاع الحيوي كفكرة ذات أساسٍ ميتافيزيقي عند برغسون، وتظهر بجلاء في غريزة الليبيدو الاندفاعية ذات الأساس

---

[1]- حالة دورا The Dora case، "دورا" (1882-1945) ، وهي حالة لفتاة كانت مصابة بمرض الهيستيريا، وقد انكب فرويد على دراسة حالتها النفسية المرضية، عن طريق تحليل ما تعيشه من صراع نفسي لاشعوري مكبوت في دواخلها النفسية، آخذًا في حسبانه تحليل أحلامها بوضع تأويلاتٍ لها، بربطها بتاريخها العائلي والشخصي. وقد أصدر فرويد دراسته المتصلة بحالة دورا عام: 1905.

[2]- Sigmund Freud, Cinq psychanalyses : Dora, Le petit Hans, L'homme aux rats, Le président Schreber, L'homme aux loups, Traduction inédite de l'allemand par : Cédric Cohen Skalli et Olivier Mannoni (éditions Payot & Rivages, Collection Petit biblio Payot Classiques, Préface éditoriale, février, 2017), p. 150.

السيكولوجي عند فرويد. فقد يكون هناك تلاقي بين المنظورين البرغسوني والفرويدي؛ من ناحية الاندفاع المستمر الذي يبث الطاقة في الحياة النفسية، لكن تأويلهما يفترقان بين ما هو ميتافيزيقي خالص، وما هو سيكولوجي فيزيولوجي. وينحدر في هذا السياق سؤال إشكالي حول العلاقة السببية بين الغريزية الاندفاعية والحياة النفسية: **فما الباعث على سيرورة الحياة النفسية واندفاعها بلا توقف؟ وهل محركها هو الاندفاع الحيوي، أم غريزة الليبيدو؟** إن ما يحمل الحياة النفسية على الدينامية والحيوية هي طاقة اندفاعية تمكث داخل الإنسان، وهذه الطاقة موسومة عند برغسون بالاندفاع الحيوي؛ الذي يمنح للحياة انطلاقتها ونزوعها الحركي، هذا الذي يجعل الكائنات العضوية الحية تحافظ على استمراريتها وبقائها في الصيرورة التطورية للحياة[1]. والحياة النفسية ليست بمعزل عن اندفاع الحياة، لأن الديمومة الداخلية النفسية تتدفق بحيوية لا تعرف انكسارا ولا نكوصا للوراء. إنها ترسم مسارات في حركة التطور البيولوجي للكائنات العضوية، والمعنى الثاوي وراء التطور، أنه تطور خلاَّقٌ ومبدعٌ لأشكال الحياة العضوية في العالم، أي أنه تطور حي[2]. فالتطور الخلاق للحياة، بواسطة الاندفاع الحيوي، يُرخي بخيوطه على الحياة النفسية التي تندفع وتستجيب للحركة الاندفاعية للحياة، نعني أن الديمومة النفسية المنبثة في أعماقنا تجري بحيوية هي الأخرى. ويظهر هذا التلاقي بين الاندفاع الحيوي وديمومة الحياة النفسية في نظرية برغسون الميتافيزيقية، على شاكلة علة ومعلول، نبتغي من هذا كون دافع الحياة النفسية وحركتها هو الاندفاع الحيوي المبدع المستمر للحياة. فالاندفاع هو العلة، والحياة النفسية هي المعلول. ويبدو من طرح برغسون أن الاندفاع الحيوي هو الذي يجعل ماهية الحياة النفسية تنبض بالحركة، والأمر ذاته ينعكس على الشعور والذاكرة الخالصة، فلولا الاندفاع الحيوي الذي يتداخل مع الديمومة المتدفقة، لما كانت للحياة النفسية أية حيوية، بل ستركن إلى السكون وتصير جافةً بلا حياة. إذن مع برغسون ليست الحياة اندفاعًا عبثيًا بل هي اندفاعٌ لأجل الاستمرار، لأجل حفظ البقاء، لأجل منح الحياة النفسية دفقا بلا توقف.

لا ضير في اعتبارنا أن مسألة اندفاع الحياة بحيوية، قائمة في تصوري برغسون وفرويد، إلا أن الفرق الجوهري بينهما يكمن في أن برغسون نظر إلى اندفاع الحياة ليس في الحدود البيولوجية والسيكولوجية حصرًا، بل اعتبره اندفاعًا أنطلوجيًا خالصًا ينتهي بالمسار التطوري للحياة الإنسان إلى إبداع شعور خالص. أما فرويد فقد اهتدى إلى أن جوهر الحياة النفسية مكمنه في الطاقة الغريزية لليبيدو، وبيان مفهومها في أنه دافعٌ غريزي تم كبته في أعماقنا النفسية الدفينة، وأحيانا تتسم شحنة الليبيدو بتضارب وتناقض، آخذة مسارات أخرى متباينة، أي أن طاقة الليبيدو تتأرجح بين الكبت

[1]- Henri Bergson, L'évolution Créatrice, (Bibliothèque de Philosophie contemporaine : Fondée par : Félix Alcan, PUF, Soixante-dix-septième édition, Paris, 1948), p. 88.

[2] - Gilles Deleuze, La Philosophie de Bergson, Op.cit. p. 101.

الذي هو جوهرها وتتعاظم شحنته، أو تضمر على هيئة نكوص[1]. بمعنى أن طاقة الليبيدو الغريزية لا تعرف مستقرًا بل هي في تذبذبٍ، لكن لولاها لتوقفت سيرورة الحياة النفسية، لاعتبار الدافع الغريزي البيولوجي والسيكولوجي هو أساس الحياة النفسية في نظرية فرويد، ومكمن طاقة الليبيدو في اللاشعور الذي يحمل الجوهر الحقيقي للحياة النفسية وفقًا له. فإذا ما أردنا فهم جوهر غريزة الليبيدو فلابد من ردّها إلى نشوئها مع الطفل الرضيع الذي تكمن فيه طاقتها منذ ولادته، وهذه الغريزة ذات حمولة بيولوجية فيزيولوجية جنسية؛ ويعني بها فرويد تلك الحياة الجنسية للطفل الرضيع، التي يطالها التعقيد والتركيب[2]. وحينما نقول حياة جنسية؛ نقول بالضرورة موضوع رغباتٍ بيولوجية يسعى لها الطفل، إذ لا مفر منها؛ لكون طاقة الليبيدو بمثابة حفزٍ على الاستمرار في البقاء، فهي ليست غريزة بيولوجية عابرة يُصرّفها، بل الليبيدو هي طاقة حياةٍ تتمثل في نزوعٍ سيكولوجي نحو تحقيق الرغبات المكبوتة في الحياة النفسية اللاشعورية المظلمة، وكذلك هي اندفاعٍ بيولوجي لأجل حفظ البقاء.

ينكشف عدم التآلف بين برغسون وفرويد في مسألة العلاقة بين الاندفاع الحيوي وبصمته الغائرة في الحياة النفسية، من خلال تناقض الرؤى: بين اعتبار برغسون للاندفاع الحيوي مسألة ميتافيزيقية خالصة، تُفضي إلى تشكل الشعور الخالص في أعقاب الفاعلية التطورية الخلاّقة المبدعة للحياة، وهذا الاندفاع الحيوي يخترق حياة الإنسان منذ نشأته الأولى لحفزه على حفظ بقائه، والنأي عن الهلاك. أما فرويد فتحليله كان نفسيًا بيولوجيًا بحتًا لمسألة اندفاع الحياة وتجذره في الحياة النفسية، إذ تبَّين عبر تحليله أن الطفل حينما ينبثق إلى العالم تكمن داخله طاقة الليبيدو الغريزية المادية، بوصفها طاقة جنسية بيولوجية تدفعه سَاعِيًا نحو رغباته، والهدف الأسمى من غريزة الليبيدو هو حفظ البقاء. وما يتبدى لنا من خلال التصورين: أن الحيوية تلازم الحياة النفسية، فلولاها لما لامستها الدينامية والاستمرارية. لكن ما انكشف لنا عبر تحليل المقاربتين: البرغسونية والفرويدية، أنهما تلتقيان وتتقاطعانِ بصورة عامة في حيوية الحياة النفسية واندفاعها المستمر، لكنهما يختلفان جذريا في تحديدها ففي الطرح الميتافيزيقي لبرغسون جعلها مسألة خالصة لا تنحصر في حدود العالم السيكولوجي، بل ربطها بالديمومة الخالصة للحياة النفسية الشعورية، أما فرويد فقد انتهى إلى أن اندفاع الحياة النفسية يندمج مع ما هو بيولوجي وسيكولوجي، فالطفل الرضيع حمَّالٌ في أعماقه لكتلة طاقية جنسية غريزية دافِعَةٌ لبقائه، وساعيةٌ به لإشباعِ رغباته اللامتناهية وحفظ بقائه.

---

[1] - سيغموند فرويد، محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، تشرين الأول، 2007)، ص. 110.

[2]- Sigmund Freud, Cinq Leçons sur la Psychanalyse : Suivi de contribution à l'histoire du mouvement psychanalytique, Traduction de l'allemand par Yves Le Lay (Cinq leçons), et Samuel Jankélévitch (Contribution), révisée par Gisèle Harrus-Révidi, Préface de Frédérique Debout (éditions Payot & Rivages, Collection Petit biblio Payot Classiques, Juin, 2015), p. 82.

خاتمة:

إن ما توصلنا إليه في المنتهى عبر تحليلنا لمنظورين متناقضين حول مفهوم الحياة النفسية بين الميتافيزيقا والتحليل النفسي، يدفعنا للقول: إن الحياة النفسية تستوعب المعنى الميتافيزيقي الخالص، لكونها تجربة داخلية حيوية، وفي الآن ذاته لا انفصال للحياة النفسية عن الفاعلية البيولوجية السيكولوجية. لأن ما هو بيولوجي جسدي ولاشعوري سيكولوجي، يتفاعل ويتداخل مع ما هو شعوري خالص. فرغم تباين المنطلقات بين برغسون وفرويد؛ أي بين الشعور واللاشعور، الذاكرة الخالصة والذاكرة السيكولوجية الفسيولوجية، والتقارب النسبي بينهما حول اندفاع الحياة بشكل حيوي ينعكس على سيرورة الحياة النفسية، ونعني هنا: الاندفاع الحيوي الخلاَّق البرغسوني، في مقابل الطاقة الغريزية لليبيدو الفرويدي. إلا أن الحياة النفسية يَلتَفُّ حولها نسيج تفاعلي حيوي بين ما هو ميتافيزيقي محض، نظرًا لارتباطاتها مع الشعور النفسي وديمومة الحياة الداخلية الخالصة، وفي نفس الوقت تمثل الحياة النفسية تعبيرًا عن حالات نفسية قابعة في اللاشعور. ولعل الجزم النهائي بكون المقاربتين الميتافيزيقية والتحليلية النفسية، يمكن أن نُفاضِلَ بينهما تفضيلاً، فالمسألة ليست بالهينة، لما؟ لأن الشعور واللاشعور يجسدان علاقة تفاعلية، وتكاملية، إذ لا يمكن القول إن الحياة النفسية رهينة بماهية الشعور، ونلغي جوهرها اللاشعوري أو العكس. بل هما معًا يفسران معنى الحياة النفسية. فهي شعورية أنطلوجية خالصة ولاشعورية سيكولوجية بيولوجية.

وإذا تأملنا في الحياة النفسية، ينكشف لنا بجلاء أن الإنسان فيها له القدرة على التجريد، أي إبداع صور خالصة لحياته النفسية، وذكرياته التي عاشها في الماضي، كما أن الإنسان لا ينفصل عن نزوعاته البيولوجية السيكولوجية المتصلة بمادية جسمه. إذن حسم ماهية الحياة النفسية ليس بالهين ويبقى مفتوحًا بين الميتافيزيقا والتحليل النفسي. وحتى مع الطفرات العلمية المتلاحقة في العلوم العصبية والدماغية والنفسية، تظل مسألة الحياة النفسية غير محسومة، كونها عبارة عن دينامية وسيرورة لا يمكن القبض عليها بِيُسر. وهنا نقول أيضًا حتى المقاربة الفلسفية الميتافيزيقية لها أيضًا شأنها ووزنها في قضية تأويل مفهوم الحياة النفسية إلى جانب باقي المجالات المعرفية العلمية البحتة. فصعوبة الحسم مردُّه إلى اختلاف زوايا معالجة الموضوع، فالفلسفة تعتمد على التجريد والتحليل النفسي يعتمد على محاكاة العلوم الوضعية في فهم الحياة النفسية.

المصادر، والمراجع المعتمدة:

بالعربية:

- بورش ميكل، شمدزاني جاكوبسون وسونو، في تاريخ نشأة التحليل النفسي: مَلفات فرويد الموثقة، ترجمة عبد القادر قنيني (أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 2017).
- فرويد سيغموند، محاضرات جديدة في التحليل النفسي، ترجمة جورج طرابيشي (دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثالثة، تشرين الأول، 2007).

بالفرنسية:

- Bergson Henri, Essai sur les données immédiates de la conscience (Quadrige, PUF, I 55e édition, Avril, 1982).
- Bergson Henri, L'énergie Spirituelle : Essais et conférences (Bibliothèque de philosophie contemporaine, Fondée par : Félix Alcan, PUF, cinquante-deuxième éd, 1949).
- Bergson Henri, L'évolution Créatrice, (Bibliothèque de Philosophie contemporaine : Fondée par : Félix Alcan, PUF, Soixante-dix-septième édition, Paris, 1948).
- Bergson Henri, Matière et mémoire : Essai sur la relation du corps à l'esprit, Introduction, notes, chronologie et bibliographie par : Denis Forest (édition établie sous la direction de Paul-Antoine Miquel, éditions GF Flammarion, 2012).
- Bergson Henri, Réflexions sur le temps, l'espace et la vie (édition Payot & Rivages, Collection Petit biblio Payot Classiques, Paris, 2023).
- Deleuze Gilles, La philosophie de Bergson (Bibliothèque de Philosophie Contemporaine, Fondée par Félix Alcan, P.U.F).
- Freud Sigmund, Cinq Leçons sur la Psychanalyse : Suivi de contribution à l'histoire du mouvement psychanalytique, Traduction de l'allemand par Yves Le Lay (Cinq leçons), et Samuel Jankélévitch (Contribution), révisée par Gisèle Harrus-Révidi, Préface de Frédérique Debout (éditions Payot & Rivages, Collection Petit biblio Payot Classiques, Juin, 2015).

- Freud Sigmund, Cinq psychanalyses : Dora, Le petit Hans, L'homme aux rats, Le président Schreber, L'homme aux loups, Traduction inédite de l'allemand par : Cédric Cohen Skalli et Olivier Mannoni (éditions Payot & Rivages, Collection Petit biblio Payot Classiques, Préface éditoriale, février, 2017).
- Freud Sigmund, Métapsychologie, trad. Fr. J. Laplanche et B. Pontalis (Galimard, 1968).
- Tadié Jean- Yves et Tdié Marc, Le sens de la mémoire (édition revue et augmentée, Introduction inédite, éditions Gallimard, collection essais folio, Paris, France, février, 2025).
- Worms Frédéric, Le Vocabulaire de Bergson (Ellipses édition, Paris, France, Juin, 2000).